د. منصور فايز وسط رفاقه من الأطباء

شاهد عيان آخر - اللحظات الأخيرة

يرويها د. منصور فايز - أحد أطباء عبد الناصر

obeikandl.com

obeikandl.com

الدكتور منصور فايز أستاذ أمراض الباطنة بكلية طب قصر العيني واحد من أطباء عبد الناصر الذين حضروا الوفاة .. ولذا فشهادته لها من الأهمية ما يجعلنا حريصين علي إثباتها وقد سجل رحلته مع الرتب في كتابه [مشواري مع عبد الناصر] منذ أن أختاره عبد الناصر بشكل شخصي في عام ١٩٦٣ للإشراف علي علاجه وظل يشغل هذا الموقع حتى انتقل عبد الناصر إلي رحاب الله في عام ١٩٧٠ .

[يقول د . فايز في مقدمة كتابه : شاءت الظروف أن أكون الطبيب المعالج للرئيس جمال عبد الناصر منذ عام ١٩٦٣ وحتى رحيله ، وهو تكليف لا يحسد عليه أحد ، فالمسئولية كانت ضخمة بلا حدود] .

[ويقول : ولكنني إذا لم أفكر في تسجيل الأحداث كما رأيتها وكشاهد عليها .. ربما لكوني طبيباً بطبيعتي وبتكويني وبحكم مهنتي وأول صفات الطبيب هي الكتمان لا الرواية .. إلا أنني خلال سنوات مضت تابعت تفسيرات مغرضة لقرارات ومواقف اتخذها عبد الناصر يحاولون بها أن يرجعوا صدورها إلي حالته الصحية للتشكيك في هذه القرارات وعند ها الحد شعرت بأن تسجيل الحقائق المتصلة بصحة جمال عبد الناصر بوصفي الطبيب المسئول عن علاجه ـ أصبحت مطلوبة ولكن طبيعة من كنت أعالجه كزعيم بارز في العالم العربي وقرب موقعي منه وملازمتي له سنين عديدة .. فرضت علي قلمي مالي به دراية من أحداث فقصرت الحديث عل ما جري منها أمامي ، وعلي ما رواه لي جمال عبد الناصر نفسه .. دون الرجوع إلي أي مصدر آخر، فلست ناقداً مفنداً للأخطاء ولا مؤرخاً أتقصي الوقائع] .

***

بعد ظهر يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ م أتصل بي السيد فؤاد عبد الحي من السكرتارية الخاصة للرئيس جمال عبد الناصر ، وقال لي إن الدكتور الصاوي موجود عند الرئيس ويطلب حضورك فوراً لأن الرئيس متعب .

وتوجهت في الحال إلي منزل الرئيس ووصلت في الرابعة وخمسين دقيقة ، وبعدي بدقائق وصل الدكتور زكي الرملي الذي كان الدكتور الصاوي قد استدعاه أيضاً.

أبلغني الدكتور الصاوي في كلمات سريعة موجزة أن الرئيس قد أحس بالتعب أثناء توديعه أمير الكويت في المطار ، وأنه قام بفحصه وأجري له رسماً كهربائياً للقلب وتبين وجود جلطة جديدة في الشريان التاجي مصحوبة باضطراب في ضربات القلب ، وأنه بدأ العلاج فوراً .

دخلت حجرة الرئيس فوجدته راقداً علي سريره مرتدياً البيجامة ، وكان يبدو عليه الإرهاق الشديد ، وكان متعباً من ضربات القلب ، ولكنه كان رابط الجأش لا تبدو عليه أية أعراض للقلق .

بادرني مبتسماً حين رآني : [إزاي عرفوا يجيبوك دلوقت ؟] .

ثم استطرد مشيراً إلي الأسبوع الذي قضاه في مؤتمر القمة في الهيلتون [الحقيقة أنهم تعبوني جداً في الأيام اللي فاتت] .

قمنا بفحص الرئيس وأطلعنا علي رسومات القلب التي أجريت له علي الفور ، واتضح لنا من الفحص الإكلينيكي الذي وقعه كلاً منا وكذا دراسة الرسومات الكهربائية للقلب أن الرئيس جمال عبد الناصر قد أصيب بجلطة حديثه في الشريان التاجي للقلب مصحوبة باضطراب في ضربات القلب ، واستمر العلاج المركز وكان جمال عبد الناصر قد أصيب بجلطة في الشريان التاجي في ١١ سبتمبر من العام الماضي كما سبق أن أوردت .

كنا ـ فريق الأطباء ـ نخرج وندخل كثيراً بين غرفة نومه وبين حجرة مكتبه الملاصقة ، حيث كنا نحتفظ بجميع الأجهزة والاستعدادات لعلاج جلطة الشريان التاجي إثر إصابته بالنوبة الأولي قبل عام .

كانت وجوهنا جادة تعكس التفكير والتركيز ، بينما ظل جمال عبد الناصر علي

هدوئه مسيطراً علي أعصابه .

لم يسألني ما الخبر ؟ ولم يستفسر عما أصابه ، فلقد كان يعرف .. وأظنه أراد أن يفسح لنا المجال لنؤدي واجبنا دون أسئلة منه .

ولكني أذكر أنه قال لي وأنا منهمك في علاجه : « أنا مش حارقد المرة دي .. أنا عندي مواعيد وشغل كتير الفترة اللي جاية » .. قالها وجهاز رسم القلب لم يزل متصلاً بذراعيه وساقيه .

وفي تمام الساعة الخامسة مد جمال عبد الناصر يده إلي جهاز الراديو بجانب سريره ، واستمع إلي موجز نشرة الأخبار من إذاعة القاهرة وقال : « مافيش حاجة » ثم طلب قفل الراديو واستطرد : « نيكسون كان عامل لي مظاهرة في نابولي وكنت عايز أعرف إيه الأخبار » .

وكان نيكسون قد حضر بنفسه إلي نابولي لحضور مناورة تقوم بها أقوي قطع الأسطول السادس وذلك من باب التهديد لجمال عبد الناصر .

وفي الوقت نفسه كان جمال عبد الناصر يريد أن يعرف ردود الفعل الخارجية لمؤتمر الهلتون ، وكان قد سأل وزير الإعلام عن ذلك من قبل .

وكانت الشائعات قد ملأت مصر والعالم العربي – فيما بعد – أن عبد الناصر كان يترقب سماع خبر موت الملك حسين أو حتى احتضاره .. وكانت الشائعات الشعبية تؤكد أن سبب موت عبد الناصر أنه تناول كوب عصير مسموم كان المقصود به ملك الأردن لتنته بانتهاء حياته مذبحة أيلول الأسود ضد الفدائيين الفلسطينيين والتي عقد من أجلها آخر مؤتمر قمة في القاهرة سبتمبر ١٩٧٠ . وانتهت بانتهائه حياة عبد الناصر .. وباشر عبد الناصر أعماله وهو مقيم في فندق الهلتون مكان انعقاد المؤتمر فقد كانت حالته الصحية لا تسمح له بالذهاب إلى البيت والعودة كل يوم .

قالت الشائعات أن عبد الناصر تناول كوب العصير المسموم عن طريق الخطأ .. حين أخطأ العامل الذي يقدم المشروبات لضيوف المؤتمر .. وكان عبد الناصر يجلس إلى جوار الملك حسين .. فحدث الخطأ .

والحقيقة غير ذلك تمامًا فقد كان لعبد الناصر ساقي خاص مسؤول مع طبيبه الخاص عن كل ما يتناوله من شراب أو طعام أو دواء .

وقالت الشائعات : تلك الحيلة لم تكن من أفكار عبد الناصر وقالت غيرها أنه صاحب الفكرة ولكن القدر أوقعه في الحفرة التي حفرها لأخيه الملك .. وقد عز عليه أن يقع الفلسطينيين فريسة بين رحى القوات الأردنية والإسرائيلية .

تحسنت ضربات القلب ، وقال جمال عبد الناصر « « الحمد لله .. أنا دلوقت استريحت » .

وكانت تلك هي آخر كلماته .

فما هي إلا لحظات وتوقف القلب فجأة .

لم يستجب قلب جمال عبد الناصر إلي محاولتنا البائسة بالتدليك والصدمات الكهربائية ليعود إلي نبضه .

وأدركت أن الأمر قد قضي .. وأن جمال عبد الناصر أصبح في رحاب الله .. وكان جمال عبد الناصر منتبهاً طول الوقت ولم يدخل في غيبوبة من أي نوع حتى الوفاة .

وقد ترددت شائعات كثيرة حول وفاة جمال عبد الناصر نشر بعضها في الصحب المحلية والبعض الآخر في الصحف العربية ، من هذه الشائعات أن جمال عبد الناصر توفي بغيبوبة نتيجة نقص السكر في الدم ، ومنها أيضاً أنه مات مسموماً ، وكما سبق أن أوردت فقد أشيع أن جمال عبد الناصر قد مات مسموماً نتيجة تدليكه بمادة سامة بطيئة المفعول بواسطة طبيب للعلاج الطبيعي أندس بين فريق الأطباء المعالجين ، وكان مروجي هذه الشائعات أشخاص من غير الأطباء أو للأسف أطباء

لم يشتركوا في علاج جمال عبد الناصر أو كانوا بجواره ساعة الوفاة .

وكان جمال عبد الناصر قد أمضي قبل ذلك فترة مشحونة بالتوتر والانفعالات أثناء انعقاد مؤتمر القمة العربي في فندق الهيلتون لوقف إطلاق النار بين الأردن والمقاومة الفلسطينية .

وخرجنا من حجرته ليدخل إليه أبناؤه في وداع أخير .

نزلنا إلي الصالون الذي كان جمال عبد الناصر يستقبل زواره وسألني أنور السادات : هل أوصي الرئيس بشئ .. ؟ فقلت : لا .

ثم مال علي حسين الشافعي وقال له : ما العمل بالنسبة لكيان الدولة ؟ وأعقب ذلك باقتراح أن ينعقد مجلس قيادة الثورة .

ولكن الرأي انتهي إلي الأخذ باقتراح هيكل أن ينعقد اجتماع مشترك للجنة التنفيذية العليا ومجلس الوزراء .

وانعقد الاجتماع في المساء وحضر معظم الوزراء من الجبهة مباشرة حيث كانوا في زيارة هناك حسب تعليمات جمال عبد الناصر ، كان الجميع واجماً من هول الصدمة ، حضرت الاجتماع ، وكان معي الدكتور زكي الرملي ، وأعلنت التقرير الطبي وسبب وفاة الرئيس ثم انصرفت .

وكان الإذاعة والتليفزيون قد بدأ منذ رحيل جمال عبد الناصر يذيعان آيات متصلة من القرآن الكريم ، وأحس الناس بأن شيئاً خطيراً وقع ، ولكن لم يقتصر أحد أن جمال عبد الناصر الذي ملأ حضوره العالم كله قد رحل عن الدنيا .

وفي السابعة والنصف ظهر أنور السادات يعلن النبأ الجلل .

وما أن انتهي من أول جملة في بيانه حتى عم البكاء كل شوارع مصر ، ونزل الخبر علي شعبها نزول الصاعقة .

زحفت الجماهير إلي بيت عبد الناصر في منشية البكري ، وحين سري بينها الخبر أن الرئيس قد نقل إلي قصر القبة تحولت الجماهير إلي هناك وانتشرت حول القصر من كل جانب وسدت الشوارع المؤدية إليه .

وباتت جماهير شعب مصر ليلتها حول القصر تحيط بجمال عبد الناصر .

وفي كل الدول العربية من المحيط إلي الخليج كان تصرف الشعوب العربية عنيفاً إزاء النبأ ؛ خرجت الجماهير في كل مكان إلي الشارع مفجوعة في رحيل رئيسيها ، وفي بيروت ظلت طلقات الرصاص تدوي طوال الليل تعبيراً عن الحزن ورمزاً للحداد .

وأعلن عن تشييع جنازة جمال عبد الناصر يوم الأول من أكتوبر ١٩٧٠ لإتاحة الفرصة لرؤساء الدول الراغبين في المشاركة فيها بالحضور .

وعلي مدي ثلاثة أيام عاشتها مصر والحزن والصمت يخيمان عليها ، توافد إليها رؤساء الدول العربية ، والدولة الصديقة في أوروبا ، وآسيا ، والإتحاد السوفييتي ووفود تمثل حكومات معظم دول العام .

وفي أول أكتوبر ١٩٧٠ كانت مصر حديث العالم كله ومحط أنظاره ، بينما إذاعاته وشبكات التليفزيون فيه تنقل علي الهواء صورة حية لشوارع القاهرة .

كان مشهد غير مسبوق لتعبير شعب عن الحب والوفاء لزعيمه ولخروج أمة في وداع قائدها فما أن طلعت شمس ذلك اليوم إلا وكانت القاهرة كبحر من البشر ، زاد علي ملايينها ملايين أخري من المواطنين جاءوا إليها بالقطارات والسيارات وبكل أنواع المواصلات ، بدأ الآلاف منهم مسيرتهم إلي العاصمة من ليلة أول أكتوبر سيراً علي الأقدام ليكونوا فيها في الصباح .

كان شعب مصر ملء شوارعها ليعبر عن حبه لزعيمه في رحلته الأخيرة ، وظهرت في سماء القاهرة طائرة هليوكوبتر نقل جثمان الزعيم من قصر القبة إلي

الجزيرة لتخرج جنازته من المبني الذي كان مقراً لمجلس قيادة الثورة .

كانت الجماهير مصطفة علي طول الطريق من مبني مجلس الثورة في الجزيرة إلي جامع عبد الناصر في مصر الجديدة وكان النظام يبدو دقيقاً .

وخرجت عربة مدفع من مبني مجلس قيادة الثورة تحمل النعش ملفوفاً في علم الجمهورية العربية المتحدة ومن خلفها مباشرة سار أبناؤه يليهم رؤساء الدول المشاركة في الوداع المهيب .

وسارت الجنازة وسط نحيب الجماهير إلي كوبري قصر النيل ، وما أن تعدت الكوبري واتجهت إلى شارع النيل أمام فندق هيلتون حتى هجمت الجماهير تربت بأيديها علي النعش لتلمسه للمرة الأخيرة .

كانت الجنازة تكاد لا تسير من فرط الازدحام وتدافع الجماهير علي عربة المدفع .

وبعد ساعات ولت الجنازة إلي منطقة غمرة ، وبدأ واضحاً أن النعش الذي تم تغيير العلم الذي يلفه عدة مرات خلال هذه الفترة لن يصل قبل الليل ، فتم نقله إلي عربة مدرعة .

ولكن الجماهير ظلت من حول الرئيس تحيط بالعربة المدرعة حتى وصل إلي جامع عبد الناصر بعد الظهر .

وشيع جمال عبد الناصر إلى مثواه الأخير في وداع لم يسبق له مثيل في تاريخ مصر الحديث .